



مقدمة:

الإسلام الحنيف خاتم الأديان والرسالات الإلهية، تميز منذ فجر دعوته في العهد النبوي بالتوسط والاعتدال، والسماحة، واليسير، ودفع الحرج والمشقة، سواء في العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، والعلاقات الاجتماعية والإنسانية؛ فهو دين الحنيفة؛ وعليه فكل مسلم يبغى التشدد والتعمت إنما يعاون روح الإسلام، ويصبح من الغالين، فما هو الغلو؟.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: **(إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)** [1]

الغلو هو مجاوزة القدر، ومجاوزة الحد في كل شيء، غلوت في الأمر إذا جاوزت فيه الحد وأفرطت فيه، وفي الشرع عرف ابن حجر الغلو بأنه: "المبالغة في الشيء والتشدد فيه بتجاوز الحد".

١- وسطية الإسلام

لقد اختار الله لأمة الإسلام منهاجاً وبيّن لها طريقها، فهي وسط بين الأمم، وطريقها هو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}** [البقرة:143].

فهي أمة الوسطية، ودينها وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، كالوادي بين جبلين، والهدي بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيق له، فالغالي فيه مضيق له أيضاً، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد. وإنّ من أبرز سمات هذه الشريعة المحمدية الخاتمة الوسطية والاعتدال، حيث بُنِيت على جلب المصالح ودرء المفاسد، والتيسير ودفع المشقة، قال تعالى: **{وَمَا جَعَلْنَاكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}** [الحج: 78]، وقال: **{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** [البقرة: 185].

وقال في وصف من شملته رحمة الله من أهل الكتاب: **{الَّذِينَ يَتَبَعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحَلِّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}** [الأعراف: 157].

أي: أنه جاء بالتييسر والسماحة والرِّفق ورفع الحرج أو الحنيفة السَّمحة، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن : **(يُسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوِلَا وَلَا**

2- الغلو من قدم الأديان في أصله و نوعه

فالغلو في الدين فيبني آدم قديم منذ قدم الأديان، وإن كان يختلف في نوعه؛ لكن يجمع البشر اشتراكهم في أصله؛ قال ابن عباس في قوله تعالى: {وَلَا تَذَرُنَّ وَدًا وَلَا سُواعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَتَسْرًا} "أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخت العلم عبدات" [3]

فغلت طائفة من قوم نوح في هؤلاء الصالحين حتى عبدهم، ولا زال الغلو فيبني آدم من بعد ذلك، ومما أخبرنا به ربنا عز وجل في غلو مَن سبقنا قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُبُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَى مَرِيمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَامْنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ} [النساء: 171].

فلا زال الغلو في النصارى حتى اندعوا المسيح وأمه الهين من دون الله.

فالغلو في النصارى قديم سابق لمن غلا من المسلمين، فما نراه في هذا الزَّمن من تحير النصارى للمسلمين ولدينهم ولبنبيهم هو لون من ألوان الغلو الذي ورثوه عن أسلافهم، وكذلك من غلوهم: غلوهم في الحرية الشخصية حتى أباحوا ما أجمعوا الرسائل السماوية والفطر السوية على تحريمها، ومن غلوهم سعيهم الحديث في فرض ثقافتهم ومبادئهم وأخلاقهم على غيرهم.

وقد ظهر في عهد النبي صلَّى الله عليه وسلم غلو في سلوك بعض الصحابة في جانب التعبد، فقام النبي بتوجيهه وتعديلته، فمن ذلك قصة النفر الثلاثة: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلَّى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي - صلَّى الله عليه وسلم فلما أخْبِرُوا كأنَّهم تقالُوا، فقالوا: وأين نحن من النبي صلَّى الله عليه وسلم قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؟! قال أحدهم: أمَّا أنا فإني أصلِي اللَّيل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدَّهر ولا أفتر، وقال آخر: أنا أعتزل النِّساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلَّى الله عليه وسلم إليهم، فقال: (أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؛ أمَّا - والله - إِنِّي لَا خشَاكُمْ لِهِ وَأَنْقَاكُمْ لِهِ، لَكُمْ أَصُومُ وَأَفْطَرُ، وَأَصْلِي وَأَرْقَدُ، وَأَتْزُوجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغَبَ عَنْ سُنْتِي فَلِيْسَ مِنِّي) [4]

وعن الفضل بن عباس قال لي رسول الله صلَّى الله عليه وسلم غدا العقبة وهو على راحته: (هاتِ الْفُطْلِي)، فلقطت له حصياتٍ هنَّ حصى الخدُوف، فلما وضعتهُ في يده قال: (بِأَمْثَالِ هُؤُلَاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغَلُوُّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّمَا أَهْلُكَمْ مَنْ كَانَ قِبَلَكُمْ الغلو في الدين) [5]

وبسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار، وهو نهي عامٌ عن جميع أنواع الغلو، والغلو هو مُجاوزة ما حدَّه الشَّارع.

وقد يندرج في الذهن سؤال: ما علاقة الغلو بالرمي بحصة أكبر مما حدَّها النبي؟

والجواب هو: المبالغة في التعبد، فالشيطان قصده أن يحرفخلق عن الصراط المستقيم ولا يبالي إلى أي الشقين صاروا: إلى إفراط أو تفريط، فالانحراف يبدأ صغيراً ثم لا يزال يكبر وينفع فيه الشيطان حتى يضاد دين الله، وإن كان صاحبه يربِّد الخير ويطلب مرضاه الله، لكنَّ الأمر اتباع وليس هو يتبَع أو رأي يعمَل به، بل هو التعبد لله بنصوص الوحيتين الكتاب والسنة، فمن زاغ عنهما فهو هالك.

فيبداية غلو الخارج هو المغالاة في فهم النصوص الشرعية وتطبيقها، مع أنَّ لهم قسطاً من العبادة والحرص على الخير، ولا زال هذا الغلو يزداد ويبعد عن النصوص الشرعية، حتى حملهم على تضليل وتكفير حملة النصوص الشرعية المبلغين عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، أعني: الصحابة رضي الله عنهم.

وبعدة الرافضة بدأت بالغلو في بعض آل النبي حتى آل الأمر بهم لتكفير أكثر الصحابة وتنقصهم.

3- الأمر بالاستقامة والتحذير من التنطع

الواجب هو الاستقامة على أمر الله وأمر رسوله، وترك ما خالفهما وإن بدا للعقل القاصر أنَّ في ذلك خيراً، فالعبرة بالمال ونهاية الأمر لا بالحال الحاضرة، فالنبيُّ أمر بالاستقامة على أمر الله؛ قال تعالى مخاطبًا رسوله وأتباعه: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [هود: 112]، فلماً أمر تبارك وتعالى بالاستقامة حذر من مُجاوزة المشروع؛ فقد ينتهي الأمر إلى الغلو والمبالغة، فأمرنا بالاعتدال، فيُريد ربنا منا الاستقامة على ما أمر دون تفريط أو غلو.

وقد وردت النصوص في ذم المفترط على تفريطه، فهو من أهل العيادة المستحقين للعقوبة في الدنيا والآخرة إن لم تداركه رحمة الله، وكذلك ورد النبي عن الغلو في الدين والإخبار بهلاك المتنطعين؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هلك المتنطعون)، قالها ثلاثاً، [6]

فالغالي هالك في الدنيا قبل الآخرة، هالك حينما يستحل ما حرم الله من الاعتداء على الأموال والأنفس، وهالك في عدم ثباته وأنحرافه، فتجده متلويناً، فلو استقرأنا التاريخ الماضي والحاضر لوجدنا كثيراً من الغلة حصل لهم نكوص عن الاستقامة، فاستبدلوا غلوهم في الإفراط بغلو في التفريط، وهذا أمر طبعي؛ فمن كان يتبع الله بالهوى لا يثبت إنما يدور مع الهوى حيث دار، فإذا كانت بضاعة الخير هي الرائحة سلتها وإن كان للباطل صولة سلتها.

4- التحذير من التكبير لأن الغلو فيه يربق الدماء المعصومة

الأصل أنَّ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محترمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجَّة الوداع: (إِنَّ دَمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كُحْرَمَةٌ يَوْمَكُمْ هَذَا، فِي بَلْدَكُمْ هَذَا) [في شهركم هذا]

ومن أعظم الأمور الحُكْم على المسلم بالكفر والنفاق، فهو حكم خطير له آثاره العظيمة في الدنيا والآخرة، فلا يجوز أن يقدم عليه أحد إلا أن يكون كفراً بواحاً لا مريء فيه، عند الحاكم به برهان من كتاب الله أو سنة رسوله؛ فعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَيْمَّا امْرَئٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرٌ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ) [8]

قال القرطبي: "المقول له: كافر، إن كان كافراً كفراً شرعاً فقد صدق القائل له ذلك، وذهب بها المقول له، وإن لم يكن كذلك رجعت للسائل معرة ذلك القول وإثمه".

فتکفير المسلمين كبيرة من كبائر الذُّنوب، وأهل السنة لا يکفرون بالكبائر؛ في النصوص الشرعية وعيد شديد لمن کفر أحداً من المسلمين وليس هو كذلك، فالتكفير حكم شرعي يتَرَتب عليه أمور عظيمة؛ فلذا فهو مضبوط بضوابط شرعية من نصوص الكتاب والسنة، فلا يقدم عليه أحد بمجرد الهوى أو ممن ليس له رسوخ في العلم الشرعي، فالأخيل أنَّ من تلفظ بالشهادتين وأقام الصلاة فهو مسلم، تُجرى عليه أحكام الإسلام في الظاهر.

فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَمْرْتُ أَنْ أَقْاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا وَصَلَّوَا صَلَاتِنَا وَاسْتَبَلُوا قَبْلَتَنَا وَذَبَحُوا ذِيْبَحَتَنَا، فَقَدْ حَرَمَتْ عَلَيْنَا دَمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) [9]

ولو شككتنا في صدق إيمان شخصٍ أو أنه يظاهر بالإيمان، فتُجْرِي عليه أحكام المسلمين في الظاهر والله يتولاه في الآخرة؛ فعن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فصحبنا الحرّقات من جهينة، فأدركـت رجلاً، فقال: لا إله إلا الله، فطعنتهُ فوقع في نفسي من ذلك، فذكرـت للنبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَقْالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقَتَلَهُ؟) قال: قلت: يا رسول الله، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِّن السَّلَاحِ، قال: (أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمْ أَقْالَهَا أَمْ لَا؟) فما زال يكررها على حتى تمنيت أنني أسلمت يومئذ؛ [10]

فإذا خرج الحكم بالکفر من مجتهد راسخ في العلم، فهو مأجور على كل حال، حتى لو أخطأ، إذا بدأ وسعه..

فهذا كتاب ربنا طافح في ذكر الكفار والحكم بکفرهم وخلودهم في النار، من كفرة أهل الكتاب وغيرهم؛ كما في قوله تعالى: **{مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مَنْ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** [البقرة: 105].

فحكم على من لم يسلم من أهل الكتاب وغيرهم بالكفر.

5 - علاج الغلو

لابد من معالجة الغلو لأنها ظاهرة خطيرة، وقضية كبيرة وينبغي على المجتمع المسلم اجتناثها من أساسها بكل الوسائل الشرعية الممكنة منها والمتحدة، ويتجلى العلاج في وصايا كثيرة ذكر منها:

الوصية الأولى: عدم استخدام العنف بمفرده؛ والوسيلة الأنفع في ذلك هي الحوار، وهي الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن ابن عباس رضي الله عنه، فلقد حاور النبي صلى الله عليه وسلم ذا الخويصرة وقال له: (ويحك، من يعدل إن لم أعدل؟!).

وكذلك حاور ابن عباس الخارج فرجع منهم ألفان. ولا شك أن أسلوب الحوار في هذه المشكلة هو من أنفع الأساليب إذا كان يجدي؛ ذلك أن نور الحق ساطع وببرهانه قاطع، وهو يعلو ولا يعلى عليه، وهو الذي يعالج المشكلة من جذورها؛ لأن العنف مظهر للفكر، ولا يمكن إزالة الفكر بإزالة مظهره فقط.

فإن لم يجد الحوار والجدال والتي هي أحسن انتقال إلى الخطوة الأخرى وهي اجتناث فكر الغلو ولو بالقتال وذلك إذا أوصل صاحبه لأن يكون من الخارج المارقين، والأدلة في شرعنا مستفيضة على هذا.

الوصية الثانية: تعزيز ما من شأنه إزالة أسباب هذا الغلو كنشر العقيدة السليمة والنهج الصحيح، ذلك أن السمة الغالبة لكثير من يغلو في دين الله عزوجل هي الجهل بعقيدة السلف ومنهجهم في الاستدلال، قال النبي عليه الصلاة والسلام في صفة الذي اعترض على قسمته: (إن من ضئضي هذا قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان) [11]

فذكر من أبرز مظاهر الغلة عدم فهم القرآن، ولو قرؤوه بأسنتهـم فهم لا يتفقـهـون فيهـ، ولا يـعرفـون مقاصـدـهـ، وهذا يجعلـهم يـأخذـونـ آياتـ نـزلـتـ فيـ الكـفـارـ فـيـجـعـلـونـهاـ عـلـىـ الـمـؤـمـنـينـ، كـماـ قـالـ ابنـ عمرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ.

الوصية الثالثة: هي إحياء دور العلماء العاملين؛ ذلك أن غياب العلماء عن الساحة في كثير من الأحيان هو من أكبر أسباب الغلو المبني على الجهل، ولذلك فإن الوصية المبذولة هي الاهتمام بإعادة دور العلماء.

الوصية الرابعة: دفن الهوة بين العلماء والأمراء من جهة، وبين الشباب من الجهة الأخرى؛ ذلك أن الشاب إذا وثق بمن يتولى أمره من قائد أو عالم فإنه سيسمع ويطيع، وبالتالي ستحل مشكلاته، ويتبين له ما التبس عليه.

وفي الختام: يجب أن لا ننسى وسطية هذا الدين، وأنه جاء ليحارب التنطع والغلو والتشدد، والقرآن والسنة مليآن بالشواهد والأدلة التي لا تقاد تحصى.

والله نسأل أن يهدي ضال المسلمين، وأن يدفع عن هذه البلاد الفتن والمحن ما ظهر منها وما بطن، وأن يبرم لهذه الأمة أمر رشد، يعز فيه أهل الطاعة، ويهدي فيه أهل المعصية، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر.

1 - رواه الإمام أحمد

2 - رواه البخاري ومسلم.

3 - رواه البخاري.

4 - رواه البخاري ومسلم.

- 5 - رواه الإمام أحمد وغيره ورواته ثقاف.
- 6 - رواه مسلم.
- 7 - رواه مسلم.
- 8 - رواه البخاري ومسلم.
- 9 - رواه البخاري.
- 10 - رواه البخاري ومسلم.
- 11 - رواه البخاري

المصادر: